القصص الديني

الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

مدين وشعيب

عبد الحميد جودة السحار

١٠

١

بالقُرْبِ من الحدودِ المصرية فى جنوبىِّ فِلَسْطِين ، كانتْ قبيلةُ مدينَ تَعِيش ، وبجوارِها أراضٍ واسعة ، غرسوا فيها بساتينَ وحدائقَ ذات بهجَة ، تسمى الأَيْكَة .

وكان هؤلاء القومُ جميعًا يغُشُّون فى البَيْعِ والشراء ، فإذا باعُوا شَيْئا نَقَصُوا المِكْيالَ والميزان ، وأَعْطَوا الناس أقلَّ من حقهم ، أَما إذا اشترَوْا فإنهم يَزيدُون الكيلَ والوَزْن ؛ وأَخذوا أَكثرَ من حقهم .

وكانوا يَخْرُجُون للإغارة على المسافرين فى الطرق ، يسلُبُونَهم وينهَبُون ما مَعهم ، ويُؤْذُونَهم ولا يخافون الله فى أعمالهم . لأَنهم كانوا يعبُدون آلهةً كاذبة ، ويظنُّون أنها خَلَقَتْهم .

فَأَرسَلَ اللَّه إليهم شُعَيبا ، ليَأْمُرَهم بعبادةِ اللَّه ، وعملِ الخيرِ مع الناس ، والصِّدقِ فى البَيعِ والشِّراء ، وتَوفِيَةِ الكَيل والمِيزان .

٢

ذهَبَ شُعَيبٌ إلى أهلِ مَديَن فقال لهم :

﴿ يا قَومِ اعْبُدوا اللَّه ما لَكم مِن إلهٍ غيرُه ، ولا تنقُصُوا المِكيالَ والميزان ، إنى أَراكُم بخَيْرٍ وإنِّى أخافُ علَيكم عذابَ يوم مُحيط . ويا قوم أَوفُوا المِكيالَ والميزانَ بالقِسط ، ولا تبخَسُوا الناسَ أشياءَهم ، ولا تَعْثَوا فى الأَرضِ مُفسِدين » .

« قالوا : يا شُعَيبُ أَصلاتُكَ تأْمُرُكَ أنْ نترُكَ ما يعبدُ آباؤنا ، أو أن نفعلَ فى أموالِنا ما نشاء » ؟

قال : يا قَوم ! إننى أُريدُ إصلاحَكُم بقدرِ ما

أَستَطيع ، وليس غَرَضى أن أُخالِفَكُم وأُنازِعَكم ، بلِ القَصْدُ أنْ أُصلِحَ أُمورَكم ، لأَنَّ اللَّه لا يقبَلُ أن تبيعوا الناسَ أقَلَّ من حقوقِهم ، وتأْخذوا منهم أكثَرَ من حقوقكم ، ولا يرضَى بأَن تَنْهَبُوا الناسَ وتُسْلُبوهم .

قالوا : يا شعيب ! إنَّنا لا نفهَمُ ما تقُول ، وأَنتَ رجلٌ ضَعيف ، ولولا أَقارِبُكَ لقَتلناك ، وما أَنتَ علينا بعَزيز .

قال : يا قَوم ، هل أَقارِبى أَعزُّ علَيكُم من اللَّه ، الذى أَرسَلَنى إلَيكم ، وهو القَوىُّ القادِرُ الذى يَعْلَمُ كلَّ أَعْمالِكم ، ويَقْدِرُ على إهلاكِكُم جميعا ؟

قالوا : يا شُعَيب ! اذْهَبْ فَقُلْ لرَبِّكَ يأْتينا بالهلاكِ الذى تقولُ عنه . ولا تُتْعِب رءوسَنا بالكلامِ الثَّقِيلِ الذى لا نَفْهَمه .

٣

وذَهَبَ شُعَيْبٌ إلى أصحابِ الأَيْكَةِ فقالَ لهم :

« إنِّى لَكُم رسُولٌ أَمين ؛ فاتَّقُوا اللّه وأَطِيعُون ، وما أَسأَلُكم عليه من أَجْرٍ ، إنْ أَجْرِىَ إلاَّ على رَبِّ العالَمين . أَوفُوا الكَيلَ ولا تكونوا من المُخْسِرين ، وزِنُوا بالقِسْطاسِ المُسْتَقيم ، ولا تَبْخَسُوا النـاسَ أَشْياءَهم ، ولا تَعْثَوا فى الأَرضِ مفسِدين ، واتَّقُوا الذى خَلَقَكُم والجِبِلَّةَ الأَوَّلِين » (يعنى الأجيال الأولى قبلهم) .

« وقالوا : إنَّما أَنتَ من المُسَحَّرين (يعنى المجانين الذين أصابهم السحر ، فأصبحوا مذهولين) وما أنتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وإن نَظُنُّكَ لِمن الكاذبين » .

وقال الذين استكبروا منهم : إن كنتَ نَبِيًّا فأَسْقِطْ عَلينا قِطَعا من السماءِ ، فنعرِفَ أنَّك رسولٌ من عند اللّه الذى تقول عنه ، ونَعرِفَ أنَّك من الصَّادِقِين .

وأمَّا الناسُ الطيِّبون فآمَنوا معه ، وانْضَمُّوا إليه ، وعَبَدُوا اللّه معه .

٤

عاد شُعيبٌ إلى قريتِه (مَدْيَن) ومَعَهُ الجماعة المؤمنون ، وكُلُّهم من الفقراء الطيبين ، الذين لا ينهَبونَ الناس ، ولا يأْكُلونَ حقوقهم ، ولا يقطَعونَ الطُّرُق ، ولا يَسلُبون أموال المسافرين .

ولم يسكُتْ عن دعوةِ أهل مدينَ وأَصحابِ الأَيْكَةِ إلى اللّه ، وتخويفِهم من العذابِ والهلاكِ إذا لم يرجِعوا عن الفسادِ فى الأرض .

وكان بعض الناسِ الطيبين ينضَمُّونَ إليه ، فاغْتاظَ الكفّارُ المتكبِّرون ، ووقفوا فى الطُّرقِ يمنعُون هَؤلاءِ الناسَ الطيبين من المرور ، والذّهاب إلى شُعَيب ، وكلَّ مَن عَرفوا أنّه ذاهبٌ إليه آذَوهُ وضَرَبوه ، وأَخذوا أموالَه .

فَذَهَبَ إليهم شُعَيبٌ يقول :

ـ يا قوم لا تُفسِدوا فى الأرضِ بعدَ إصلاحِها ، ذَلِكم خيرٌ لكم ، ولا تقْعُدوا بكلِّ طريق ، تخوِّفُونَ الناس ، وتَمنَعُونَهم عن الإيمان باللّه ، وخافوا أنْ يُعذِّبَكم اللّه كما عَذّبَ قَومَ نوح ، وقوم هود ، وقومَ صالحٍ فى الزّمنِ القديم . أو كما عَذّب قومَ لوط ، وهم قريبون منكم فى زمانِكم ، وقَرِيبونَ من الأرضِ التى تعيشونَ فيها .

« قال الملأُ الذين استكبرُوا من قومه : لَنُخْرِجَنَّك يا شُعَيْبُ والذينَ آمنُوا معكم من قريَتِنا أَو لتعودُنَّ فى مِلّتِنا » .

قال : إننا لَن نعودَ فى ملّتِكم أَبدا بعد أَن نجّانا اللّه منها ، وقد توكلنا على اللّه ، واللّه يحكم بيننا وبينَكُم بالحق ، واللّه خيرُ الحاكمين .

٥

واستمرَّ القومُ يُؤْذون أَتباعَ شُعَيْب المؤمنين ، ويقولونَ لهم :

ـ ارجِعُوا خيرٌ لكم فإنكم ستَخْسَرُون باتِّباعِكم هذا الرجلَ الضعيف الفقير . تعالوا معنا : فنحنُ الأغنياءُ الأقوياء .

فيُجيبُهم المؤمنون :

ـ كلا ! لن نعودَ إلى الكُفْرِ بعدَ أَن هدَانا اللّه .

فيزيدُون فى إيذائهم يومًا بعد يوم .

وكذلك استمرُّوا ينهَبُون المسافرين ، ويسرِقُون فى الميزان والمِكْيالِ عند البيْعِ والشراء ، ولا يخافون اللّه . ولا يسْمَعُون كلامَ شُعَيْب . حتى تَضايَق منهم شُعَيْب . وعلِمَ أنهم لن يُؤْمِنُوا أبدا .

فَدَعا اللّه أن يحكُم بينَه وبين هؤلاء القوم ، ويُعطىَ المؤْمِنينَ والكفارَ جزاءهم الذى يستحقونه .

٦

عند ذلك اشتَدَّتْ حرارةُ الجو ، وظلتْ ترتفعُ وترتفع ، حتى أحسَّ الناسُ أنَّ الحرارةَ تَشْوِى وُجُوهَهُم وجلودَهم ، وتَخْنُقُ أنفاسَهم ، فلا يستطيعُونَ التنفُّس ، ويبحثُون عن النَّسمَة فلا

يجدُونها ، لأن الجوَّ خانق ، والعرقُ يسيلُ من أجسادِهم ، والماء لا يُرْوِيهم أبدا .

وظلوا على هذه الحالَةِ سبعةَ أيامٍ بلياليها ، يتعذبون من الجو الحار المكتُوم ، ويصرُخُون ويستَغِيثُون ، ويُصلُّونَ لآلِهَتِهم ، ويَدْعونها أن تُفرِّجَ عنهم هذا الكربَ وهذا الاختناق .

وفى اليومِ الثامِن شاهَدوا دُخْنَةً فوقَ رءُوسِهِم تحجبُ عنهمُ الشمس . ففرِحُوا وقالوا : لقد استجابت الآلهة لدُعائِنا ، وأرسلت إلَينا هذه الظُّلَّة تحجبُ عنا الشمسَ المحرقة ، وسَتَخِفُّ الحرارةُ بعد ذلك ، وننجُو من هذا العذَابِ الأليم .

وبينما هم كذلك ، أَحسَّ أَهلُ مدين بزلْزالٍ شَديد ، ترْتجُّ منه الأرضُ تحتَهم ، وتتحطمُ بسببِهِ

المبانى عليهم ، فيموتون فى بيوتِهم ، ولا يستطيعُون الهربَ منها .

وأَمَّا أَصحابُ الأيكة فرأَوا الصواعِقَ الملتهبةَ تنْزِلُ عليهم من هذه الدُّخْنَة التى حَسَبُوها ظُلَّة ، فتُحرقُهم وتصرَعُهم ، وتُهْلِكُهم جميعا .

٧

أما شُعَيبٌ والذين آمنوا معه ، فقد نَجَوا من الزِّلْزالِ فى الأَرض ، ومن الصَّواعِق فى السماء .

فرفع رأسَه إِلَى السماء وهو يقول :

ـ لقد بلَّغْتُ هؤلاء القومَ رسالةَ اللّه ، فلم يُصدِّقوا ولم يُؤْمِنُوا ، واستمرُّوا فى أعمالِهم الرديئة القبيحة ، حتى عاقبَهُم اللّه عليها هذا العقابَ الأليم . وهم

يستحقُّونَ ما جرَى لهم ، ولن أحزنَ عليهم ، فهُم قومٌ كافرون .

وهكذَا كانَ مصيرُهم كمصير قومِ نوح ، وقومِ هود ، وقومِ صالح ، وقوم لوط ، كلهم كذَّبُوا الرسل ، فَحَقَّ عليهم العذابُ والهلاك .

٨

عاش شُعَيْبُ بعدَ ذلك طويلا ، ورزَقه اللّه رِزْقًا عظيما ، فصار عندَه آلافٌ من الغَنَم يَرْعاهَا بنفسِه ويَعْطِف عَلَيْها .

ولَمْ يكُنْ لِشُعَيْبَ أولادٌ ذكور ، بل كانتْ لَه بنْتان .

ولما كَبِرَ وهَرِمَ لم يَكُنْ يقدِرُ على رَعْىِ الغَنَم ،

فكانتِ البنْتان تَخْرُجان لِرَعْيها وسَقْيها . وكانتا بِنْتَيْنِ مُؤَدَّبَتَيْنِ ، ولا تَسْقِيان الغَنم إلاّ بَعْدَ أن يَسْقِيَ الرجالُ أغنامَهَم وَيَنْصَرِفُوا ، حَتّى لا تَخْتَلِطا بالرجال .